أسطور OSTOUR

التسلم Received 2024-11-13
التعديل Revised 2025-08-31
القبول Accepted 2026-05-17

المُعرّف الرقمي: DOI: https://doi.org/10.31430/TCRO9612

وليد الشرقاوي | Walid Cherqaoui*

تاريخ النساء تحت اختبار التأمّل والأخلاق: حالة الناشطات الماركسيات - اللينينيات المغربيات

Women's History Put to the Test of Reflexivity and Ethics: The Case of Moroccan Marxist-Leninist Women Activists

شـكّلت "سـنوات الرصاص" في المغرب - وهي فترة من العنف السياسي للدولة، ارتبطت ارتباطًا وثيقًا بحكم الملك الحسن الثاني (1961-1999) - موضوعًا لعدد من الدراسـات، لكنها نادرًا ما نُظر إليها من زاوية تاريخ النسـاء. تسـتند هذه الدراسـة إلى بحث أُجري مع معتقلات سياسـيات سـابقات من الحركة الماركسية - اللينينية المغربية، بغية تبيّن تقاطع تاريخ النساء مـع تاريخ الزمن الراهن. وتُقدّم نقدًا للمبدأ الأخلاقي القاضي بضرورة إخفاء الهوية، الذي لا يضمن بالضرورة المجهولية، وتدعو المؤرّخ إلى تجاوزه حتى وهو تحت رقابة شـهوده. فكتابة تاريخ النسـاء تمرّ حتمًا عبر تسميتهن بأسمائهن، باعتبار ذلك هو السبيل الوحيد لاستعادة فرادة تجاربهن وكسر محوهن من الكتابات التاريخية.

كلمات مفتاحية: العنف السياسي، المغرب، سنوات الرصاص، النساء المناضلات، التأمّلية، إخفاء الهوية.

Morocco's "Years of Lead" - a period of state political violence closely associated with the reign of King Hassan II (1961-1999) - have been studied in depth, yet they have rarely been examined from the perspective of women's history. This article draws on research conducted with former female political prisoners from the Moroccan Marxist-Leninist movement, in order to explore the intersection between women's and contemporary history. It offers a critique of the ethical principle that mandates anonymity, arguing that it does not necessarily guarantee true anonymity and urging historians to move beyond it. Writing women's history, the study contends, necessarily involves naming women, as this is the only way to recover the individuality of their experiences and to counter their erasure from historical narratives.

Keywords: Political Violence, Morocco, Years of Lead, Women Activists, Reflexivity, Anonymization.

* باحث في معهد تاريخ الزمن الراهن (فرنسا).

Researcher at Institut d'histoire du temps présent (France).

Email: walid.cherqaoui@gmail.com

مقدمة

إن اختيار موضوع البحث أو مجاله ليس أمرًا عشوائيًا، أو محض صدفة. وسواء أكان هذا الاختيار مفروضًا أم نابعًا من إرادة الباحث، فإنه عادةً ما يكون نتيجةً لدوافع واعية أو غير واعية. وترتبط هذه الدوافع بالبيئة الاجتماعية والثقافية والسياسية، أو بسنّ الباحث وخبراته، أو بعواطفه وأهوائه، وحتى بمِحَنه أو اضطراباته النفسية. وفي هذا السياق، يقول عالم الاجتماع سيرج بوغام: "غالبًا ما يُسقِط علماء الاجتماع جزءًا من ذواتهم على الأبحاث التي يجرونها"[1]. ويمكن إسقاط هذا الاقتباس على مجال التاريخ، حيث نستبدل "علماء الاجتماع" بـ "المؤرّخين".

في مجال التاريخ، يمكن القول إنّ الباحثين القادمين من بلدان كانت مستعمرة سابقًا هم غالبًا من يعملون على القضايا الاستعمارية، أو ما بعد الاستعمارية. وبالمثل، فإن أولئك الذين يتمتّعون بحساسية خاصة تجاه الذاكرة يعملون على موضوعات متعلّقة بسياسات الذاكرة. "وكما دعا ميشيل دو سيرتو، يميل المؤرّخون أكثر فأكثر إلى إدماج بُعد 'انعكاسي' في أعمالهم، والتساؤل بشأن الخطاب الذي يطرحونه. ويُعتبر هذا الخطاب الآن مرتبطًا على نحوٍ أساسي بلحظة زمنية، أو بمكان، أو بمؤسسة معينة"[2]. لذلك، فإن كتابة المؤرّخ للتاريخ لا يمكن فصلها عن الجذور التي ينطلق منها، وهي جذور عليه إدراكها والتفكير فيها، وأخذها في الحسبان في أثناء صياغة أبحاثه. يُطلق على هذا التمرين التأمّلي تسميات متنوعة، بحسب الباحثين والتخصّصات العلمية، مثل: "الموضوعية المشاركة"، و"التحليل الذاتي"، و"التحليل السوسيولوجي التأمّلي"، و"العلاقة بالموضوع"، و"التاريخ الذاتي"، وغير ذلك.

إذا كان المؤرّخ أو عالم الاجتماع يمثّلان فاعلين اجتماعيين مثل الآخرين، أي يمثّلان أفرادًا عاديين يعيشون كبقية أفراد المجتمع، فإن في إمكانهما استخدام علاقتهما بموضوع بحثهما مصدرًا للمعلومات بشأن التمثيلات الاجتماعية لظاهرة معيّنة والممارسات والاستخدامات والارتباطات والتحيّزات، وما إلى ذلك. ويجب طبعًا تقييم هذه البيانات التي تتعلّق بالتجربة والمشاعر والعواطف، في ضوء الميدان والشهادات، لكنها يمكن أن تُشكّل خطوة أولى لدراسة الموضوع وصياغة بعض الأسئلة. تكتسي هذه الخطوة أهمية أكبر، عندما تكون الأبحاث بشأن موضوع الدراسة قليلةً، كما هي الحال بالنسبة إلى "سنوات الرصاص"، باعتبارها من فترات العنف السياسي التي عرفها المغرب.

يتعلق الأمر بوضوح بأخذ التحليل الذاتي على أنه ميدان دراسة، استنادًا إلى المدوّنات والروايات والأغاني والإعلانات والسيَر الذاتية للأفراد. وتبقى هذه الأمثلة وسائطَ للخيال الاجتماعي، أو "البناء الاجتماعي للواقع"؛ كلٌّ وفقًا لنوعه ومنطق مجاله، بمعنى عالم الاجتماع بيير بورديو، أو وفقًا لجنسه، لكن الجميع يساهمون في إلقاء الضوء على البعد الاجتماعي والتجارب الفردية.

إن اختيار موضوعٍ بحثي ليس عشوائيًا. فإذا كان يتعلّق بدولة معيّنة وبفترة معيّنة وبسكان معيّنين، فلا علاقة لذلك بالصدفة. ومن خلال ممارسة تأمّلية في السطور التالية، أودّ أن أعرض تفكيري وكيف وصلت إلى هنا، كما يدعو عالم الاجتماع والسياسة فيليب كوركوف كل باحث للقيام بهذا التمرين: "التأمّلية الاجتماعية، أي العودة إلى الذات وتاريخها وأدواتها وعلاقاتها مع الأبحاث، هي جانب من العمل البحثي، لا يزال محدود الممارسة في فرنسا. ما يهيمن كثيرًا حتى اليوم هو الموضوعية التي يمكن وصفها في إيجاز بأنها موقف متعالٍ خارجي تجاه ميدان البحث"[3].

1 Serge Paugam, *La pratique de la sociologie* (Paris: Presses Universitaires de France, 2008).

2 Christian Delacroix et al. (dir.), *Historiographies. Concepts et débats*, vol. 1 (Paris: Gallimard, 2010).

3 Philippe Corcuff, "Quand le terrain prend la parole... Éléments de sociologie réflexive," *L'Homme et la société*, no. 115 (1995), pp. 61-73.

أولًا: مسارات عائلية وشخصية وعلاقتها بالاهتمام بالمناضلات الماركسيات - اللينينيات المغربيات في السبعينيات

يتعلّق موضوع دراستي هذه بالعنف السياسي الذي عاشته المناضلات السياسيات اليساريات في المغرب خلال سنوات الرصاص. لماذا اخترت هذا الموضوع؟ أولًا، لقد فُرض عليّ إلى حدٍ ما، بسبب تجربتي العائلية، كوني حفيدًا لجدي الذي كان ضحية للاختفاء القسري والتعذيب بعد الانقلاب العسكري في عام 1972، فأردت أن أعرف ما الذي عاناه بالضبط، وفي أيّ إطار.

حتى عام 2015، تاريخ حصولي على شهادة البكالوريا، لم أسمع البتة عبارة سنوات الرصاص. لم يتم تناول هذا الموضوع طوال مسيرتي الدراسية في النظام التعليمي الثنائي اللغة في المدرسة المغربية. كانت مادة التاريخ في السنة الأولى من البكالوريا من المواد التي يجب أن نُختبَر فيها في الامتحان الجهوي. كانت الفترة المشمولة تمتدّ بين عام 1912، تاريخ فرض الحماية الفرنسية على المغرب، وتاريخ كتابة هذه السطور. بمعنى آخر؛ وبأسلوب ساخر كانت دراستنا - ونحن تلامذة - تتركّز في الاستعمار والاستقلال والنضال لاستكمال الوحدة الترابية الكاملة للبلاد؛ أي لم يحدث أي شيء، بين عام 1956 - تاريخ إعلان الاستقلال - والزمن الراهن، فقد كان تاريخ هذه الفترة الطويلة يُختزل في نضال يومي لاستعادة الصحراء والمدينتين المغربيتين سبتة ومليلية من السيادة الإسبانية.

بين التاريخ الرسمي الذي يقول إنه لم يحدث شيء - حيث لم تُذكر الانقلابات الفاشلة في مقررات التعليم، بهدف توجيه التاريخ نحو تمجيد الملكية التي لم تُزعزع - وتجربة جَدّي التي كنتُ أعرف منها اللحظة السياسية فحسب، بدأتُ أطرح تساؤلات بشأن ما وقع من أحداث سياسية بين عام 1956 وزمننا الراهن. ومن ثم، مع اهتمامي بهذه الفترة، بدأتُ أقرأ شهادات من سجناء سياسيين سابقين، نُشرت وبيعت في المكتبات المغربية، وحُوّل بعضها إلى أفلام سينمائية. لم أشاهد هذه الأفلام فحسب، بل شاهدتُ أيضًا وثائقيات موجودة على صفحات الإنترنت، بُثّت أولًا عبر القنوات التلفزيونية المغربية. وهكذا، بدأتُ أتعرّف تدريجيًا إلى فترة سنوات الرصاص. وعلى الرغم من أنني لم أستطع بعد معرفة تاريخ جَدّي - حيث لا أعرف إن كان ينتمي سياسيًا إلى أي تنظيم من اليسار المغربي في ذلك الوقت، فإنني أعلم أنه لم يكن من الانقلابيين؛ لأنه لم يكن جزءًا من فيلق الجيش، بل كان مزارعًا وبائع كتب. أدركت بعد عدة سنوات من الاهتمام الشخصي بتاريخ سنوات الرصاص أنّ النساء أيضًا شاركن في هذه الفترة، لكنّ مشاركتهن نادرًا ما كانت تُذكر، إن لم تكن غير مذكورة البتة.

تجدر الإشارة إلى أنّ الباحثين الذين تناولوا هذه الفترة (سنوات الرصاص) لا يتّفقون على فترة تأريخها. فمثلًا، يعتمد أنثروبولوجيون، مثل سوزان سليوموفيكس، على فترة حكم الملك الحسن الثاني كاملة (1961-1999)[4] لتحديدها زمنًا لسنوات الرصاص. في المقابل، يُركّز علماء السياسة، مثل مونيا بناني-شرايبي، على الفترة 1956-1999، وهي الفترة التي غطّتها هيئة الإنصاف والمصالحة[5]. من ناحية أخرى، تحدّد الباحثة في العلوم السياسية، خديجة محسن فنان، بداية سنوات الرصاص باختفاء المعارض السياسي وزعيم الاتحاد الوطني للقوات الشعبية المهدي بن بركة، في 29 تشرين الأول/ أكتوبر 1965[6]، وهو التاريخ نفسه الذي يعتمده المؤرّخ بنيامين ستورا، لكنه يقترح إطارًا زمنيًا محدودًا بين عامَي 1965 و1975: "من وفاة المهدي بن بركة، مرورًا بمحاولتَي الانقلاب الفاشلتين في عامَي 1971 و1972، وصولًا إلى 'المسيرة الخضراء' في عام 1975"[7].

4 Susan Slyomovics, "Témoignages, écrits et silences: l'Instance Équité et Réconciliation (IER) marocaine et la reparation," *L'Année du Maghreb*, no. 4 (2008), pp. 123-148.

5 Mounia Bennani-Chraïbi, "Rétrospective sur la voix de la rue au Maroc: Tout ne change pas pour ne rien changer," *L'Année du Maghreb*, no. 21 (2019), pp. 37-54.

6 Khadija Mohsen-Finan, "Mémoire et réconciliation au Maroc," *Politique étrangère*, vol. 72, no. 2 (2007), pp. 327-338.

7 Benjamin Stora, "Maroc, le traitement des histoires proches," *Esprit*, no. 266-267 (Août-Septembre 2000), pp. 88-102.

إذا لم تتفق الدراسات التاريخية على نحوٍ قاطع على تحديد بداية سنوات الرصاص، فإن الأمر لا يصبح أكثر وضوحًا عند محاولة تحديد نهايتها الزمنية. فبينما يعتمد الكُتّاب المذكورون سابقًا عام 1999 موعدًا لنهاية هذه الفترة، مشيرين إلى وفاة الملك الحسن الثاني، يقدّم المؤرّخ بيير فيرميرين تعريفًا مختلفًا؛ إذ يعتبر هذه الحقبة "دورة طويلة من الأحداث والتعذيب والمحاكمات الممتدة وآلاف السنوات من السجن التي لحقت المعارضين السياسيين ومنفّذي الانقلابات حتى منتصف الثمانينيات"[8]. على أيّ حال، من الثابت أنّ هذه الحقبة مرتبطة بشخصية ملك واحد: الحسن الثاني.

إذا كانت هناك بالفعل دراسات بشأن سنوات الرصاص، فإنها تركّز في الغالب على تسلسل الأحداث السياسية، وعلى الأشكال المختلفة للاختفاء القسري وآثاره في الفاعلين وعائلاتهم. فعلى سبيل المثال، أجرى الباحث في العلوم السياسية، فريدريك فيريل، دراسة استمرت لأكثر من ثلاث سنوات[9]، تتبّع خلالها مسارات المدافعين عن حقوق الإنسان والفاعلين الإسلاميين والناشطات النسويات، من خلال منظور التعبئة والاستراتيجيات المتّبعة في مواجهة الاختفاء القسري. وفي دراسة أخرى شاركته فيها الباحثة في العلوم السياسية والاجتماعية مريم كاتوس، تناول فيريل كيفية عمل النظام السلطوي للملكية المغربية في عهد الحسن الثاني ومحمد السادس، وهو نظام "ليس تمامًا هو نفسه، وليس تمامًا نظامًا آخر"[10].

يُقدّم المؤرّخ دانييل ريفيه، في كتابه **تاريخ المغرب**[11]، عرضًا شاملًا لتاريخ المغرب من فترة الأدارسة إلى العلويين. أمّا المؤرّخ بيير فيرميرين، فيركّز على المغرب المعاصر في كتابه **تاريخ المغرب منذ الاستقلال**[12] الذي يغطي الفترة من استقلال المغرب في عام 1956 إلى الحكم ما بعد الربيع العربي. ويتناول فيرميرين في كتابه **المغرب في مرحلة انتقالية**[13] التحوّل السياسي الذي شهده المغرب، والذي أوصل محمد السادس إلى العرش بعد وفاة الحسن الثاني، إضافة إلى دراسة هيكلية عمل المخزن. وفي كتابه **معارضو المغرب العربي منذ الاستقلال**[14] الذي شاركته في تأليفه خديجة محسن فنان، يقدّم فيرميرين لمحة عن تاريخ المغرب العربي من خلال حضور المعارضين الذين كان نشاطهم السياسي يُشكّل جزءًا من مرحلة شهدت ولادة أنظمة سلطوية.

أمّا المؤرّخون المغاربة، فلم يكن العديد منهم مهتمًّا بهذه الفترة الحديثة نسبيًا من تاريخ المغرب المعاصر، حيث فضّلوا دراسة التاريخ في العصور القديمة[15]، ربما لأن التاريخ السياسي المعاصر للمغرب يبقى موضوعًا حساسًا للمعالجة. وهذه الملاحظة تُعمَّم أكثر على المستوى المغاربي، كما يشير المؤرّخ بنيامين ستورا: "بين محاولات العلوم السياسية، والسرديات الهَيْغيُوغرافية، والكتب المتعلّقة بفلسفة التاريخ (التي لا بد من أن تكون مجرّدة وأيديولوجية)، لم تتمكّن دراسة التاريخ المعاصر من إيجاد مكان لها في المغرب العربي. هذا التاريخ يُثير الخوف"[16].

8 Pierre Vermeren, *Histoire du Maroc depuis l'indépendance* (Paris: La Découverte, 2016), p. 55.

9 Frédéric Vairel, *Politique et mouvements sociaux au Maroc. La révolution désamorcée?* (Paris: Presses de Sciences Po, 2014).

10 Myriam Catusse & Frédéric Vairel, "'Ni tout à fait le même, ni tout à fait un autre'. Métamorphose et continuité du régime marocain," *Maghreb-Maghrek*, no. 175 (2003), pp. 73-91.

11 Daniel Rivet, *Histoire du Maroc* (Paris: Fayard, 2012).

12 Vermeren.

13 Pierre Vermeren, *Le Maroc en transition* (Paris: La Découverte, 2004).

14 Khadija Mohsen-Finan & Pierre Vermerren, *Dissidents du Maghreb: Depuis les indépendances* (Paris: Belin, 2018).

15 إبراهيم بوطالب، **تاريخ المغرب الحديث والمعاصر**، سلسلة بحوث ودراسات 65 (الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2014).

16 Stora.

يتحدّث المؤرّخ جامع بيضا عن غياب المواد الأرشيفية؛ وهو ما يجعل من الصعب كتابة تاريخ يقع عند تقاطع الذاكرة والسياسة[17]. لكن إنشاء هيئة الإنصاف والمصالحة لم يقتصر على إرسال إشارة بأن الدولة قد منحت الضوء الأخضر للباحثين لدراسة الأحداث المتعلقة بسنوات الرصاص في إطار تاريخ الزمن الراهن فحسب، بل إنّ أحد أعضاء هذه الهيئة، الذي عيّنه الملك محمد السادس، هو المؤرّخ إبراهيم بوطالب. وتُجسّد الكتب: **من الحماية إلى الاستقلال: إشكالية الزمن الراهن**[18]، و**الزمن الحاضر ووظائف المؤرّخ**[19]، و**تاريخ المغرب: تحديث وتلخيص**[20]، و**المغرب والزمن الحاضر**[21]، النقاشات التاريخية بشأن تاريخ الزمن الراهن. وإذا كان الكتابان الأولان يدرسان إمكانية كتابة تاريخ الزمن الراهن وتقنياتها، فإن الكتاب الثالث يجمع مساهمات نحو ثلاثين مؤرّخًا يعيدون كتابة تاريخ المغرب فعليًا. أمّا الكتاب الرابع الذي تُتّبع فيه منهجية المعهد الفرنسي لتاريخ الزمن الراهن، فيهدف إلى بناء معرفة تاريخية اعتمادًا على المقارنة بين ذاكرة الشهود والبحث الأكاديمي. لكنّ الباحث إبراهيم القابلي يُشير، بأسلوب دقيق، إلى أنّ جميع الفاعلين التاريخيين في تاريخ الزمن الراهن لم يحظوا بالاهتمام نفسه من المؤرّخين: "في الواقع، من خلال التركيز على الحركة الوطنية، والحركات السياسية والاجتماعية، والصحراء والمناطق التي شهدت الاستعمار الإسباني، أنشأ المؤرّخون المغاربة المشاركون في هذه النقاشات نسيانًا خاصًّا بهم، يتضمّن، من بين أمور أخرى، الحركة الأمازيغية والمعتقلين السياسيين والنساء، الذين لم يُؤخذوا في الحسبان في هذه المناقشات. ومن بين هؤلاء المتروكين، تُعتبر النساء المغربيات أكبر المُهملات في تاريخ الزمن الراهن"[22].

لقد بقي تمثيل النساء في الكتابات التاريخية محدودًا على نحو لافت. فالتاريخ الذي صِيغ طويلًا بأقلام الرجال ولأجلهم، انصرف في الغالب إلى سرد الأحداث من منظور ما يُسمّى "الرجال العظماء"؛ وهو ما أفضى إلى تهميش النساء وإقصائهن إلى هوامش السرد التاريخي. لكنّ أواخر ستينيات القرن العشرين وبداية سبعينياته شهدت بروزًا متسارعًا لكلّ من التاريخ الشفوي وتاريخ النساء، في سياق سعي متزايد لرد الاعتبار إليهن بوصفهن "فاعلات في التاريخ"[23]. وكما هي الحال في مجالات أخرى، وفترات زمنية مختلفة، فإن "السرد التاريخي التقليدي لا يوليهن إلّا مكانًا ضئيلًا؛ إذ يفضّل المشهد العام - السياسة، والحرب - حيث نادرًا ما يظهرن"[24]. إنّ هذا النقص في الاهتمام بالنساء بصفتهن "صانعات للتاريخ"، يتجلّى أيضًا في كتابة التاريخ في المجال الأكاديمي، كما تشير المؤرّختان رافائيل برانش ودانييل فولدمان فيما يتعلق بظهور حقل كتابة تاريخ النساء: "لم يكن المؤرّخون حتى ذلك الحين منتبهين كثيرًا إلى أنّ الإنسانية تتكوّن من النساء، كما من الرجال"[25].

حينما درست الكتاباتُ التاريخية القمعَ الذي استهدف النساء، كانت عادة تركّز على أمهات المناضلين وزوجاتهم وبناتهم وأخواتهم في إطار حركة عائلات المعتقلين السياسيين. ومع ذلك، في المغرب، بعيدًا عن أن يُختزل دورهن في مجرّد أدوار تكميلية للرجال، اختارت بعض النساء الانضمام إلى منظمات سياسية سرّية، تتبنّى الأيديولوجيات الماركسية - اللينينية، بل حتى الماوية،

17 Jamaâ Baida, "Historiographie marocaine: De l'histoire contemporaine à l'histoire du temps présent," in: Mohamed Kenbib (ed.), *Du protectorat à l'indépendance: Problématique du temps présent* (Rabat: Publications de la Faculté des Lettres et des Sciences Humaines, 2006), pp.13-18.

18 Kenbib (ed.).

19 Mohamed Kenbib (ed.), *Temps présent et fonctions de l'historien* (Rabat: Publications de la Faculté des Lettres et des Sciences Humaines, 2009).

20 Mohamed Kably (ed.), *Histoire du Maroc: Réactualisation et synthèse* (Rabat: Éditions L'Institut Royal pour la Recherche sur l'Histoire du Maroc, 2011).

21 **المغرب والزمن الراهن**، إشراف وتقديم محمد القبلي، تنسيق عبد الرحمن المودن (الرباط: منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، 2013).

22 Brahim El Guabli, "Gender-Unaware History: Ordinary Women as the Forgottens of Moroccan Historiography of the Present," *Journal of Applied Language and Culture Studies*, no. 2 (2019), pp. 57-78.

23 Irène Corradin & Jacqueline Martin (eds.), *Les femmes sujets d'histoire* (Toulouse: Presses Universitaires du Mirail, 1999).

24 Michelle Perrot, "Introduction," in: Michelle Perrot, *Les femmes ou Les silences de l'histoire* (Paris: Flammarion, 1998), pp. 17-40.

25 Raphaëlle Branche & Danièle Voldman, "Pour une histoire des genres," *Vingtième Siècle. Revue d'histoire*, vol. 75, no. 3 (2002).

خلال سنوات الرصاص. ومن ثم، قررت هذه الكتابات اقتراح تاريخ لسنوات الرصاص، بفضل الصوت الذي أُعطي للنساء في إطار البحث التاريخي.

تمكّنتُ حتى الآن في أبحاثي من تحديد مجموعتين من المناضلات، على الرغم من أنّ مجموعات أخرى قد توجد خارج نطاق دراستي. تتكوّن المجموعة الأولى من ربيعة فتوح وفاطمة عوكاشة وسعيدة المنبهي وبييرا دي ماجيو، اللواتي اعتُقلن في درب مولاي الشريف[26] في عام 1976، وكُنّ جميعهن، إلى حدٍ ما، مرتبطات بالمنظمة السرّية "إلى الأمام". أمّا المجموعة الثانية، فتتكوّن من فاطنة البيه ولطيفة الجبابدي وخديجة البوخاري وماريا الزاويني ووداد البواب ونكيّة بودة. باستثناء الأخيرة التي كانت مناضلة صحراوية في جبهة البوليساريو، كانت الأخريات جميعهن مرتبطات بالمنظمة السرّية "23 مارس". اجتمعن في درب مولاي الشريف في عام 1977، لكنهن لم يلتقين بالمجموعة السابقة التي كانت قد نُقلت بالفعل إلى السجن المدني غبيلة في الدار البيضاء.

في إطار منظور التاريخ الشفوي، الذي يُفهم باعتباره طريقة معتمدة في تاريخ الزمن الراهن[27]، أجريت تسع مقابلات مطوّلة ومتكررة مع سبع من هؤلاء النساء. تدعو هذه المقاربة المؤرّخ إلى أخذ التمثيلات التي تقدّمها الشاهدات عن أفعالهن على محمل الجدّ. ومن خلال السعي لاستعادة نسيج الحياة، تسمح هذه المقاربة بإلقاء الضوء على "الاستقلال النسبي للفاعلين الذين يوجدون في 'المنظمات' أو في 'الأنظمة'، لكنهم أيضًا يقومون بتحويلها"[28].

يُعتبر التاريخ الشفوي مهمًّا لسببين: فهو يسمح بإلقاء الضوء على الحقائق والأحداث من جهة، ويعرف المؤرّخ أنّ الشاهد أمامه قد يخطئ أو يكذب من جهة أخرى. فالتضليل والكذب في حدّ ذاتهما يُمثّلان شهادات، وسيكون من الحكمة اكتشاف دوافع هذا النوع من الشهادات. تنتقد المؤرّخة فلورانس ديسكامب الاحتقار الموجّه إلى المصادر الشفوية لمصلحة المصادر المكتوبة؛ إذ ترى أنّ ذلك قد يؤدّي إلى إغفال روايات وتجارب غنية قد تُسهم في فهم أعمق للتاريخ: "عندما نستخدم التاريخ الشفوي، نرى على نحوٍ أوضح هشاشة الوثيقة المكتوبة. فهي ليست أقلّ تأثّرًا من الشهادة الشفوية بالنيّات والتبريرات والصمت، وما لا يُقال. فلنتجنّب اعتبار كل ما تقوله الوثيقة (أو المصدر المطبوع، أو الجدول الإحصائي، أو الخريطة) بمنزلة الحقيقة المطلقة، وأن ننخدع بالأمان الزائف الذي توهمنا به الكتابة!"[29].

لا يتعلّق الأمر هنا حقًّا بعرض كيفية سَير المقابلات، لكن كيف برزت مسألة الحفاظ على السرّية وخصوصية المقابلات عند استغلال النتائج. يجد هذا التساؤل معناه في التمرين التأمّلي الثاني في هذه الدراسة.

ثانيًا: الواجب الأخلاقي قيد يُمكن تجاوزه؟

لقد شكّل تاريخ الزمن الراهن نفسه حقلًا تاريخيًا، تتمثّل مهمته في دراسة "فترة زمنية تتزامن فيها اللحظة المدروسة مع لحظة دراستها"[30]، كما تقول المؤرّخة دانييل فولدمان. ومن هذا المنطلق، تُعدّ المصادر الشفوية[31] مصادرَ أساسيةً بالنسبة إلى المؤرّخ

26 يتعلّق الأمر بمركزٍ للشرطة يقع في الحي الشعبي "الحي المحمدي"، في الدار البيضاء، تحوّل إلى مركز احتجاز سري في السبعينيات.

27 حول التمييز بين التاريخ الشفوي والمصدر الشفوي والأرشيف الشفوي، ينظر:

Danièle Voldman, "Définitions et usages," *Les Cahiers de l'Institut d'Histoire du Temps Présent*, no. 21 (1992), pp. 33-41.

28 Robert Cabanes, "Avant-propos," *Cahiers Pratiques sociales et travail en milieu urbain*, no. 14 (1991).

29 Florence Descamps, *Archiver la mémoire: De l'histoire orale au patrimoine immatériel* (Paris: Éditions EHESS, 2019), p. 23.

30 Danièle Voldman, "Le témoignage dans l'histoire française du temps présent," *Les Cahiers de l'Institut d'Histoire du Temps Présent*, vol. 75, no. 1 (2000), pp. 41-54.

31 بالمعنى العام، كما تذكر دانييل فولدمان: "المصدر الشفوي هو المادة التي يجمعها المؤرخ لاحتياجات بحثه، وفقًا لافتراضاته ونوع المعلومات التي يراها ضرورية لامتلاكها". ينظر: Ibid.

المتخصّص في تاريخ الزمن الراهن. فهو بذلك "يُثير المصدر"[32] باستحضاره ذاكرة مجيبيه، خاصة عبر الشهادة. ومع ذلك، يبقى أنّ هذه الأداة تثير قضايا أخلاقية تقتضي الانتباه.

لقد كانت الأخلاق، ولمّا تزلْ، في صميم التأمّلات في العلوم الاجتماعية. ومن بين قواعدها، نجد مسألة إخفاء الهوية[33]، التي تعمل على نحوٍ يشبه "اللاوعي المؤسسي"[34]. وعلى الرغم من أنه لا يوجد تعريف عام أو قانوني لإخفاء الهوية[35]، فإن الأخير "يُعامل بصفته ممارسة توافقية تضمن حماية المستجيبين من المخاطر الناتجة من العنف المحتمل للعمليات الموضوعية"[36]. في هذا السياق، يبدو أنّ عالمة الاجتماع فلورنس فيبر، في **دليل البحث الميداني**، تتبنّى هذا الرأي وتطرحه على النحو التالي: "أن تكون إثنوغرافيًا، يعني إقامة علاقات شخصية. ومن ثمّ، فإنك تلتزم باسمك الشخصي، ولا يمكنك الاختباء وراء وظيفة أو مؤسسة أو صاحب عمل. لكنك تلتزم بالسمعة الجماعية للمحققين الميدانيين، وشرف المهنة. ولهذا يجب عليك اتّباع عدد صغير من القواعد المنهجية. [...] إذا كنت تنشر (مقالة أو كتابًا)، يجب أن تُخفي هوية المشاركين (تغيير الأسماء والكنى)، وإذا لزم الأمر، الأماكن والمجموعات"[37].

يمكن أن يكون إخفاء الهوية مفيدًا في جمع البيانات وتحليلها، بشرط اتّخاذ الاحتياطات اللازمة للحفاظ على المعنى السوسيولوجي للعمليات الاسمية[38]. وقد أصبحت هذه الممارسة متطوّرة نسبيًا عند التعامل مع بعض الفئات المستهدفة، وخصوصًا تلك التي تنتمي إلى المهن أو المجالات الاجتماعية التي تتّسم بالسرّية، مثل المؤسسات الطبية والقضائية والأمنية والعسكرية والمصرفية، أو المواضيع المتعلقة بالخصوصية أو العمل السري[39]. لكن عندما نكون أمام البحث الميداني، خاصة في تجربة التحقيق، تتطوّر قضايا إخفاء الهوية على نحوٍ مختلف. وتجعل بعض الأبحاث من إخفاء الهوية والسرّية أمرًا لا بد منه، خاصة تلك المتعلقة بالأنشطة غير القانونية[40] أو الصراعات العائلية[41]. لكن، وبحسب خصوصيات الميدان، يبدو أنّ احترام هذه القواعد يُصبح صعبًا، بل قد يكون مستحيلًا أو متناقضًا. في الواقع، فإن الواجب الأخلاقي المتعلق بإخفاء الهوية بدا لي، مع تقدّم بحثي، أمرًا غير بدهي؛ لأنه كيف يمكننا إظهار هؤلاء النساء من دون تسميتهن مباشرة؟ ولذلك، تمّ اتخاذ هذا القرار، كما يتّضح في بداية هذا

32 Robert Frank, "La mémoire et l'histoire," *Bulletins de l'Institut d'histoire du Temps Present*, vol. 21, no. 1 (1992), pp. 65-72.

33 Stéphane Beaud & Florence Weber, *Guide de l'enquête de terrain: Produire et analyser des données ethnographiques* (Paris: La Découverte, 1997); Aude Béliard & Jean-Sébastien Eideliman, "Au-delà de la déontologie. Anonymat et confidentialité dans le travail ethnographique," in: Didier Fassin & Alban Bensa (eds.), *Les Politiques de l'enquête* (Paris: La Découverte, 2008), pp. 123-141; Florence Weber, "Publier des cas ethnographiques: Analyse sociologique, réputation et image de soi des enquêtés," *Genèses*, vol. 70, no. 1 (2008), pp. 140-150.

34 Pierre Bourdieu, "L'inconscient d'école," *Actes de la recherche en sciences sociales*, no. 135 (2000), pp. 3-5.

35 Isabelle de Lambertie & Henri-Jacques Lucas (eds.), *Informatique, liberté et recherche médicale* (Paris: CNRS Editions, 2001).

36 Sébastien Roux, "La transparence du voile. Critique de l'anonymisation comme impératif déontologique," in: Sylvain Laurens & Frédéric Neyrat (eds.), *Enquêter de quel droit? Menaces sur l'enquête en sciences sociales* (Paris: Éditions du Croquant, 2010).

37 Beaud & Weber, p. 116.

38 Sarah Leroy, "'Les prénoms ont été changés'. Pseudonymisation médiatique et production de sens des prénoms," *Cahiers de sociolinguistique*, vol. 11, no. 1 (2006), pp. 27-40; Emmanuelle Zolesio, "Anonymiser les enquêtés," *Interrogations? Revue pluridisciplinaire de sciences humaines et sociales*, no. 12 (2011), pp. 174-183; Baptiste Coulmont, *Sociologie des prénoms* (Paris: La Découverte, 2011); Baptiste Coulmont, "Le petit peuple des sociologues. Anonymes et pseudonymes dans la sociologie française," *Genèses*, vol. 107, no. 2 (2017), pp. 153-175.

39 Grégory Daho, Emmanuel-Pierre Guittet & Julien Pomarède, "Les territoires du secret: Confidentialité et enquête dans les mondes pluriels de la sécurité," *Cultures & Conflits*, no. 118 (2020).

40 Veronica Pagnamenta & Ariane Racine, "Graffer la ville, ou l'itinéraire filmé d'une 'simple manie'," *ethnographiques.org*, no. 5 (Avril 2004).

41 Benoît Trépied, "Rupture sociale et aide familiale," in: Séverine Gojard (ed.), *Charges de famille. Dépendance et parenté dans la France contemporaine* (Paris: La Découverte, 2003), pp. 68-97.

النص، حيث قمتُ بذكر هؤلاء النساء وتحديدهن وتقديمهن. وهذا الاختيار هو نتيجة لعملية تفكيك تأمّلي مرتبطة بالالتزام العلمي (أو السوسيولوجي)، الذي تمنع خصوصيته الامتثال لمبدأ إخفاء الهوية.

قبل أن أعود بالتفصيل إلى اختياري استبعاد إخفاء الهوية، أودّ أن أذكر باختصار سير المقابلات. حينما أجريتُ هذه المقابلات مع هؤلاء الشاهدات، لم يكن في إمكاني إجراء دراستي التي تُعنى بوضعهن، إلّا حينما كنتُ أشاركهن تعاطفي مع القضية التي يُدافعن عنها، مُظهرًا بعض المشاعر تجاه معاناتهن. بهذه الطريقة، تحرّرت كلمتهن، وحدث تواصل بيننا. وهذا يشهد على التزامي معهن، ويحدّ من قضايا السرّية: "عندما يستند البحث جزئيًا إلى تعاطف الباحث مع موضوعه، ويصبح وسيلة لدعم قضية من خلال إبراز وجهة نظر بعض الفاعلين الذين سيكونون حلفاء أسهل، فإن قضايا السرّية تقلّ كثيرًا"[42].

1. انتقاد إخفاء الهوية

لا يعني إخفاء الهوية بالضرورة إخفاء الشخصية. ففي العديد من الحالات، لا يحول إخفاء الهوية دون التعرّف إلى المستجيبين أو الشهود، أو تحديد هويتهم، وكذلك الأمر بالنسبة إلى المنظمات والهياكل التي ينتمون إليها[43] وفي هذا السياق، يقول عالما الاجتماع أود بيليار وجان-سيباستيان إيدليمان: "من ناحية، قد يكون في إمكان قرّاء من خارج التحقيق [الدراسة] التعرّف إلى أشخاص شاركوا فيه. ومن ناحية أخرى، قد يتعرّف بعض هؤلاء الأشخاص إلى بعضهم"[44]. أمّا بالنسبة إلى موضوع بحثي، فإن ذكر عام معيّن - يمكننا التفكير في أعوام 1965، و1973، و1976، و1977، و1981 على سبيل المثال - يكفي لتحديد المناضلين والمناضلات في المنظمات (الأحزاب السياسية، والنقابات ... إلخ) لمن لديه إلمام بالمشهد الوطني، وحتى المغاربي. فاختيار إخفاء هوية هؤلاء النساء كان سيتطلّب تعديل أسمائهن وأسماء المنظمات التي كُنّ ينشطن فيها، مع إعطاء هذه العملية معنًى سوسيولوجيًا؛ إذ لا يكفي استبدال اسم بآخر، أو مكان بآخر، بل يجب الخروج من "درجة الصفر لإخفاء الهوية"[45]. فعلى سبيل المثال، ليس اختيار الأسماء عشوائيًا؛ إذ قد تكشف هذه الأسماء عن الوضع الاجتماعي. لذلك توصي عالمة الاجتماع المعنية بالنوع الاجتماعي، إيمانويل زوليسيو، بضرورة تضمين "هذه الدلالات الاجتماعية - الحتميات الأسرية، والإقليمية، والدينية أو الثقافية - التي تُمثّل عناصر ذات دلالة لتحليل الحالات المدروسة"[46] في عملية إخفاء الهوية. ومع ذلك، في حين يمكن تأسيس علم اجتماع للأسماء في فرنسا[47]، فإن هذا لم يتم (بعد) في المغرب، على حد علمي.

وجدتُني أمام معضلة: الالتزام بالأدلّة الأخلاقية والقواعد المهنية - التي لا تفرض إخفاء الهوية على نحوٍ صارم، لكنها توصي به بصفته وسيلةً آمنة لحماية السرّية - أو تبنّي التزام واتجاه علمي. إذا كان احترام مبدأ إخفاء الهوية بصفة آلية قاعدةً أخلاقية يضمن أخلاقية ممارستي السوسيولوجية، فإن إضافة بُعد سياسي في بحثٍ في العلوم الاجتماعية يأتي في الوقت المناسب لتعريف موقف علمي مستقل عن تأثيراته.

42 Béliard & Eideliman.

43 Carine Vassy & Richard Keller, "Faut-il contrôler les aspects éthiques de la recherche en sciences sociales, et comment?" *Mouvements*, no. 55-56 (2008), pp. 128-141.

44 Béliard & Eideliman.

45 Zolesio.

46 Ibid.

47 ينظر في هذا الصدد:

Philippe Besnard & Guy Desplanques, *Un prénom pour toujours. La cote des prénoms, hier, aujourd'hui et demain* (Paris: Balland, 1986); Coulmont, *Sociologie des prénoms*.

إنّ غياب النساء عن التاريخ هو الملاحظة الرئيسة التي دفعتني إلى رفض إخفاء الهوية. ويمكن تفسير هذا الاختيار بأنه استجابة للغضب الناجم عن عنف التهميش وإخفاء النساء. وكما تشير المؤرّخة النسوية والجندرية جوان سكوت، فإن هذا التغييب يعود جزئيًا إلى التركيز على الشخصيات الذكورية والأحداث السياسية أو العسكرية في الأعمال التاريخية. ويسهم رفض إخفاء الهوية في تحقيق هذا الهدف من خلال وضع الروايات الفردية في سياقها الخاص والمحدّد؛ ذلك "أنّ التاريخ التقليدي، بتركيزه على الأبطال الذكور والأحداث العامة، قد قام منهجيًا بتهميش تجارب النساء، ودفعها إلى هوامش الروايات المجهولة أو الثانوية"[48]. فإعطاء النساء وجهًا واسمًا وهوية يُعيد إليهن حضورهن في التاريخ الذي غالبًا ما تذوب فيه قصصهن في روايات مجهولة الهوية أو عامة. فعلى سبيل المثال، تتبنّى المؤرّخة النسوية ميشيل بيرو خيار تسمية العاملات والناشطات والمجهولات في الأرشيفات، مُسترجعةً بذلك الوكالة الذاتية Agentivité لهؤلاء النساء، ومظهرةً كيف تساهم مساراتهن الشخصية في تشكيل ديناميات جماعية أوسع، فـ "إعطاء النساء اسمًا ووجهًا وصوتًا في التاريخ يعني جعلهن مرئيات في تميّزهن الفردي، وإظهار كيف تشارك مساراتهن الشخصية في الديناميات الجماعية. إنّ تسمية العاملات أو الناشطات أو المجهولات في الأرشيف تعني استعادة إنسانيتهن ومكانتهن في السرد التاريخي"[49].

هنا لا يتعلّق الأمر بالدفاع عن سوسيولوجيا نقدية، تتّخذ بالضرورة موقفًا من التنديد بالعنف الناتج من الهيمنة الذكورية، بقدر ما يتعلّق بإبراز وجود هؤلاء النساء والعمل على كتابة تاريخ للنساء، الذي يمرّ حتمًا بتسميتهن بأسمائهن؛ فيجعل الالتزام الأخلاقي بإخفاء الهوية ببساطة أمرًا مستحيلًا. وهذه الاستحالة يُبرّرها عالم الاجتماع سيباستيان رو كما يلي: "غالبًا ما يتم تقديم إخفاء الهوية بصفته التزامًا أخلاقيًا يُفترض أن يحمي المشاركين في البحث من المخاطر الاجتماعية للعمل السوسيولوجي. ويجعل طابعه المهني البدهي أيّ انتهاك له محفوفًا بالمخاطر، ويثير شعورًا بعدم الارتياح. [...] ومع ذلك، فإن استحالة إخفاء الهوية لا تجعل البحث أقل أخلاقية في حدّ ذاته. [...] بل على العكس، يفرض هذا الخيار نفسه نهجًا تأمّليًا، لا يجبر على دمج البعد الأخلاقي للعمل السوسيولوجي فحسب، بل تأثيره السياسي أيضًا"[50].

إنّ خصوصية موضوع بحثي تمنع أيّ انتقال إلى فضاء مبني على نحوٍ مصطنع، من خلال تغيير أسماء الأماكن أو الأزمنة أو المتغيرات السوسيوديموغرافية للشاهدات؛ لأن ذلك سيؤدّي إلى تجريد الملاحظات والمقابلات والتحليلات المقترحة من سياقها. وعلاوة على ذلك، فإن محو خصائص هؤلاء النساء يفقد أيّ فائدة من تضمينهن في البحث. وقد كتب المؤرّخون وعلماء الأنثروبولوجيا عن حركة عائلات الضحايا[51]، وخاصة أمهات الرجال الذين كانوا معتقلين سياسيين سابقين وزوجاتهم، وذكروهن بالاسم. وقد رفعت إخفاء الهوية عن النساء اللاتي درستهن في إطار نهج مشترك معهن. وفي هذا السياق، فإن إرسال نسخ المقابلات يُعدّ ضمانًا للنزاهة والجِدّية والشفافية، كما أنه أداة تسمح بتأسيس ثقة متبادلة بين الباحث والمشاركين في البحث.

على العكس من ذلك، يجب أن تكون حماية البحث ونتائجه على رأس الأولويات من خلال استقلالية الباحث، كما يلاحظ رو: "'شرف المهنة'، كما يكتبه عالما الاجتماع، ستيفان بود وفلورنس فيبر، لا يكمن في حماية الآخرين فحسب، بل أيضًا في القدرة على تقديم أفضل تفسير ممكن للمنطق المُلاحظ"[52]. وإذا كان الباحث، في مختلف الأشكال التي يمكن أن يعتمدها في عرض نتائج بحثه،

48 Joan Scott, *Gender and the Politics of History* (New York: Columbia University Press, 1988), p. 12.

49 Perrot, *Les femmes ou les silences de l'histoire*, p. 78.

50 Roux, p. 140.

51 Joseph Hivert, "'Un bonheur paradoxal'. Les femmes de prisonniers politiques face à la violence au Maroc (1970-1990)," *20 & 21. Revue d'histoire*, vol. 151, no. 3 (2021), pp. 79-94; Frédéric Vairel & Lamia Zaki, "Politisation sous contrainte et politisation de la contrainte: Outsiders politiques et outsiders de la ville au Maroc," *Critique internationale*, vol. 50, no. 1 (2011), pp. 91-108.

52 Roux, p. 151.

قد يزعج مشاركيه، فلا بأس، شرط أن يكون ذلك في خدمة جدّية البحث فحسب. في الواقع، واجهتُ ذلك حينما كتبتُ مقالة تلخيصية ونشرتها[53]، وأرسلتها بعد ذلك إلى هؤلاء النساء الشاهدات في إطار منطق الأخذ والعطاء. وعلى الرغم من كل الاحتياطات المتّخذة لتحقيق الحيادية في هذه المقالة، فإن نقل التمثيلات المتقاطعة لمنافسات سابقات في النشاط السياسي تسبب لي في لوم شخصي. حدث ذلك حينما اقتبست خديجة البخاري، وهي تصف زميلتها السابقة لطيفة الجبابدي بـ "الوصولية". يظهر هذا إحدى صعوبات العمل مع الشهود، بمعنى أنّ التاريخ يوضع "تحت المراقبة"[54] من جانبهن؛ فكما تشير المؤرّخة دانييل فولدمان، "يمكن أن يطعن المشاركون في الحقبة والمجال المدروسَين في تأكيداتنا، وأن يعترضوا على تفسيراتنا، وأن يعلنوا، باسم حضورهم الفعلي في وقت وقوع الأحداث، أننا في أحسن الأحوال مخطئون على الرغم من حسن نيّاتنا، وفي أسوأ الأحوال نزيّف الحقيقة"[55]. ومن خلال وصف الوصولية، أهدف إلى الكشف عن تنوّع المسارات بعد السجن. كما أنّ هذا الوصف يظهر أنّ الروابط الاجتماعية تتلاشى بعد تجربة السجن، وقد يكون ذلك نتيجة للمواقف المتّبعة بعد ذلك (الانسحاب من النضال، وإعادة توجيهه، والاستقطاب من جانب الدولة).

في أثناء إجراء ملاحظة إثنوغرافية لمناسبة الجنازة الوطنية لرمز اليسار المغربي، محمد بن سعيد آيت إيدر، في 7 شباط/ فبراير 2024، في مقبرة الشهداء، في الدار البيضاء، لاحظتُ وجود لطيفة الجبابدي التي قرّرتُ التوجه إليها. وإيمانًا مني بالأهمية المحتملة لمساهمتها في أطروحتي لنيل درجة الدكتوراه، خاصة فيما يتعلق بمسارها ما بعد السجن، قررتُ استغلال هذا السياق العاطفي لتقديم اعتذاري لها - على الرغم من عدم وجود سبب حقيقي لذلك - وأعدتُ شرح منهجيتي العلمية بصفة واضحة. ومع ذلك، واجهتني بمقاومة قاطعة، وصلت إلى حد اقتباس المقولة الفرنسية "الطريق إلى الجحيم مفروش بالنيّات الحسنة"، قبل أن تُغادر المقبرة. تعكس ردة فعلها هذه المشكلة التقليدية في علاقة المؤرّخ بالشاهد، التي تبلغ ذروتها عندما يتعلق الأمر بالتخلّي عن مبدأ إخفاء الهوية. ففي هذا التشابك بين الطلبات والثقة والمخاوف المتبادلة، يسعى الشهود لفرض سيطرتهم على رواية التاريخ التي عاشوها بأنفسهم ويعتبرونها، على نحوٍ مبرر، ملكيتهم الأولى.

لكن حتى عند العمل على صياغة التاريخ رفقة الشهود، على المؤرّخ ألّا يكون موجَّهًا برغبة إرضاء المصالح الحزبية أو المنحازة، أو دعم الشهود في "الوهم البيوغرافي"[56]. فعندما يعمل المؤرّخ مع الشهود، غالبًا ما يصطدم بهذا الوهم؛ إذ يسعون، من خلال سردهم لحياتهم، لتقديم صورة مستمرة عن أنفسهم، أو تأكيد تصوّرهم الشخصي لهم. ويُظهر تحليل المؤرّخة أنيت فيفيوركا لشهود الحرب العالمية الثانية هذا التوتر بوضوح؛ فقد بيّنت أنّ الشهود غالبًا ما ينظرون إلى تجاربهم من زاوية شخصية وعاطفية خالصة، وهو ما قد يتعارض مع متطلّبات التحليل العلمي والتأطير التاريخي التي ينتهجها المؤرّخون: "يأمل الشهود، من خلال تقديم قصتهم، نقلَ 'حقيقة مطلقة'. لكن هذه الحقيقة غالبًا ما تكون ذاتية، مصوغة بالذكريات والمشاعر والتطلّعات إلى الاعتراف. وقد يبدو التدخّل النقدي للمؤرّخ في هذه الحالة كأنه طعن شخصي، أو حتى إنكار لتجربتهم"[57].

يتطلّب القيام بعمل المؤرّخ تبنّي موقف نقدي: وفي حالتي، تطلّب ذلك الالتزام بكتابة تاريخ النساء من دون إخفاء الهوية، مع مواجهة المقاومة والالتباسات، وأحيانًا الخطابات المتّفق عليها، إضافة إلى التعامل مع مهارات التمويه والطقوس الثابتة للخطابات

53 Walid Cherqaoui, "Être militante marxiste-léniniste au Maroc dans les années 1970," Centre arabe de recherches et d'études de Paris, 12/10/2023, accessed on 17/9/2025, at: https://acr.ps/1L9BPa7

54 Marc Ferro, *L'Histoire sous surveillance* (Paris: Calmann-Lévy, 1985), p. 11; Pierre Laborie, "L'historien sous haute surveillance," *Esprit*, no. 198 (1994), pp. 36-49.

55 Danièle Voldman, "Avant-Propos," *Les Cahiers de l'Institut d'Histoire du Temps Présent*, no. 21 (1992), pp. 7-9.

56 Pierre Bourdieu, "L'illusion biographique," *Actes de la Recherche en Sciences Sociales*, vol. 62-63, (1986), pp. 69-72.

57 Annette Wieviorka, *L'ère du témoin* (Paris: Plon, 1998), p. 57.

التقليدية. هذا كله يتم، على الرغم من احتمال إثارة استياء الشهود وتشكيكهم في البحوث، لأن الحقيقة تبقى أن لا أحد يحتكر التاريخ. وكما أشار الفيلسوف بول ريكور، فإن دور المؤرّخ لا يتمثّل في تأكيد الروايات الموجودة سلفًا، بل في مساءلتها ووضعها في سياقات أوسع، مع إدراجها ضمن فهم أعمق للديناميات التاريخية[58]. وفي كتابه **الذاكرة، التاريخ، النسيان**، يؤكد ريكور الدور النقدي الذي يجب على المؤرّخ أن يقوم به تجاه الشهادات: "لا يتمثّل عمل المؤرّخ في التحقق من صحة الروايات أو إعادة إنتاجها كما تُروى، بل في استجوابها وتفكيكها ودمجها في فهم أوسع للديناميات التاريخية"[59]. إنّ هذه التوترات بين السرد الفردي والتحليل الجماعي، هي التي تبني تاريخًا يتجاوز الحدود الذاتية المباشرة، ويفتح المجال لفهم أكثر شمولية وتعقيدًا للوقائع الإنسانية.

في مجال كتابة تاريخ النساء، تزداد هذه المهمة إلحاحًا؛ إذ غالبًا ما تُهمّش تجارب النساء، أو تُعاد صياغتها لأغراض أيديولوجية، أو تُختزل في روايات سطحية لا تُعبّر عن حقيقتها. لذا، فإن استكشاف تلك التجارب في كامل تعقيداتها هو ضرورة تاريخية، بعيدًا عن اختزالها في سرديات توافقية أو مُنمّقة. عند تمسّك المؤرّخ بموقفه النقدي، حتى عند مواجهة ميادين بحث مُغلقة، فإنه يساهم في كتابة تاريخ شامل ونقدي ينصف تنوّع التجارب الإنسانية.

إنّ رفض إخفاء الهوية قد يضع المؤرّخ إذًا أمام صراعات وتحدّيات، لكنه في الوقت ذاته يفتح آفاقًا جديدة لفهم الكيفية التي تتداخل بها الروايات الفردية مع البُنى الاجتماعية الأوسع. ومن هذا المنطلق، فإن هذا النهج يُعدّ خطوة ضرورية، ليس للالتزام بمقتضيات المنهجية التاريخية فحسب، بل أيضًا لإنتاج معرفة تُسائل المسلّمات، وتُسهم في إعادة تشكيل فهمنا للماضي.

خاتمة

لقد بيّنت هذه الدراسة أهمية التأمّلية بصفتها منهجيةً أساسية في دراسة تاريخ الزمن الراهن؛ إذ يساهم هذا المنهج في تفكيك الخطابات الرسمية، وإعادة قراءة الروايات المهملة، وتسليط الضوء على الفاعلين المهمّشين، خاصة النساء. إنّ التأمّلية لا تتوقف عند فهم الماضي كما هو، بل تسعى لتوسيع الأفق المعرفي بما يعكس واقعًا تاريخيًا أوسع، يتضمّن سرديات وتجارب كانت تُعتبر في السابق خارج نطاق التاريخ الأكاديمي التقليدي. وهذا ما يبرز أهمية العمل على شهادات المناضلات السياسيات خلال "سنوات الرصاص" في المغرب. إنه عمل حيوي ليس لفهم تلك الفترة الزمنية فهمًا دقيقًا فحسب، بل أيضًا لبناء رؤية أكثر شمولية وإنصافًا لتاريخ المغرب المعاصر.

علاوة على ذلك، يطرح هذا القرار المتعلّق بإخفاء الهوية تحدّيًا منهجيًا بالغ الأهمية؛ إذ يتطلّب من المؤرّخ التوازن بين الحفاظ على سرّية الشهادات واحترام حقوق الأفراد، وأهمية إبراز هذه القصص بصفتها جزءًا من الذاكرة الجماعية. في هذا الإطار، ينقض التأمّل المنهجي الأساليب التقليدية التي قد تهمل تجارب هؤلاء النساء أو تختصرها؛ ما يُعزّز أهمية الحفاظ على هوياتهن وعدم التخفيف من وقع تجاربهن. ويجعل هذا الأمر من عملية إعادة الاعتبار إليهن عملًا ذا أبعاد أخلاقية ومعرفية، تتجاوز مجرّد التقاط الأحداث وتحليلها، بل يتجاوز ذلك إلى إعادة بناء سرديات تاريخية تأخذ في الحسبان واقع المعاناة الإنسانية، بما في ذلك التفاصيل الدقيقة التي كانت مُغيّبة في السياقات الرسمية.

ما يُميّز هذا العمل هو قدرته على مساءلة السرديات التاريخية التقليدية وإعادة تشكيلها. إنّ دراسة تاريخ النساء في سنوات الرصاص لا تقتصر على جمع الوقائع وتوثيقها، بل تمتدّ إلى تجاوز الإطار الضيّق الذي يَحدّ من فهمنا لتلك الفترة التاريخية، ويقتصر

58 Paul Ricœur, *Temps et récit* (Paris: Le Seuil, 1983).

59 Paul Ricœur, *La mémoire, l'histoire, l'oubli* (Paris: Le Seuil, 2000), p. 34.

على السرد المهيمن الذي يركّز على تجارب الرجال فحسب. وتساهم هذه السرديات التقليدية في خلق تصوّر مغلوط للواقع؛ وهو ما يحرم الأجيال المقبلة من فهمٍ عميق لمجريات الأحداث وتأثيراتها. إنّ البحث في تجارب النساء خلال هذه الفترة يتطلّب التعامل مع هذه السرديات، باعتبارها جزءًا من تاريخ أوسع وأشمل، وليس مجرّد إضافات هامشية أو ثانوية.

في هذا السياق، تأتي أهمية المنهجية التأمّلية أداةً أساسية في تفكيك الروايات المهيمنة، وتحليلها من منظور نقدي، يُعيد الاعتبار إلى الفاعلين الذين تم تهميشهم، خاصة النساء. والتأمّلية، بهذا المعنى، لا تقتصر على مجرّد نقل الحقائق، بل هي عملية معقّدة، تتضمّن مراجعةً نقدية لخطابات الماضي، واستكشافًا للأبعاد غير الظاهرة في الأحداث التاريخية. إنها تتطلّب من المؤرّخ أن يتحمّل مسؤوليته في إضاءة الزوايا المظلمة في التاريخ، والبحث عن الجوانب المفقودة في السرديات الرسمية.

لا شك في أنّ هذه الدراسة تُبرز الحاجة المستمرة إلى دراسة الفترات التاريخية المهملة، وتقديم أصوات لم يتم سماعها من قبل. ففي الوقت الذي استُبعدت تجارب النساء من السرديات التقليدية، يأتي هذا العمل ليُعيد ترتيب أولويات الدراسة التاريخية، ويتيح فتحَ آفاق جديدة لفهم تاريخ المغرب المعاصر. من خلال إظهار تفاصيل دقيقة عن معاناة النساء والمراحل التي مررن بها، تُقدَّم صورة أكثر شمولية للواقع الاجتماعي والسياسي في تلك الحقبة.

تساهم هذه الدراسة بذلك في بناء ذاكرة وطنية متجدّدة، لا تقتصر على التوثيق الجزئي للوقائع، بل تسعى لتقديم صورة أكثر تنوّعًا وشمولية. إنّ التاريخ، بوصفه عملية مستمرة، لا يمكن أن يقتصر على فهم الماضي استنادًا إلى السرديات الرسمية فحسب، بل ينبغي أن يعكس واقعًا متعددًا يشمل جميع الأصوات، بما في ذلك تلك التي كانت مهمّشة ومقصاة طوال عقود.

في الختام، يظهر أنّ المنهجية التأمّلية هي المعيار الذي يقيس تفكيرنا بصفتنا باحثين، فهي تتيح لنا فرصة النظر في الماضي نظرة نقدية وموضوعية. وهذا لا يعني جمع المعلومات وتوثيقها فحسب، بل يتعدّى ذلك إلى إعادة بناء ذاكرة تاريخية تضع كل فرد في مكانه الصحيح، وتساعد في رسم صورة أكثر دقة وشمولية للحقائق التاريخية. في النهاية، لا تكمن مهمة المؤرّخ في تقديم روايات جاهزة، بل في فتح الأفق أمام تفكير نقدي، يمكنه أن يُغيّر فهمنا العميق للماضي، ويسهم في تشكيل حاضرنا ومستقبلنا.

المراجع

العربية

بوطالب، إبراهيم. **تاريخ المغرب الحديث والمعاصر**. سلسلة بحوث ودراسات 65. الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2014.

المغرب والزمن الراهن. إشراف وتقديم محمد القبلي. تنسيق عبد الرحمن المودن. الرباط: منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، 2013.

الأجنبية

Beaud, Stéphane & Florence Weber. *Guide de l'enquête de terrain: Produire et analyser des données ethnographiques*. Paris: La Découverte, 1997.

Bennani-Chraïbi, Mounia. "Rétrospective sur la voix de la rue au Maroc: Tout ne change pas pour ne rien changer." *L'Année du Maghreb*. no. 21 (2019).

Besnard, Philippe & Guy Desplanques. *Un prénom pour toujours. La cote des prénoms, hier, aujourd'hui et demain*. Paris: Balland, 1986.

Bourdieu, Pierre. "L'illusion biographique." *Actes de la Recherche en Sciences Sociales*. vol. 62-63 (1986).

_____. "L'inconscient d'école." *Actes de la recherche en sciences sociales*. no. 135 (2000).

Branche, Raphaëlle & Danièle Voldman. "Pour une histoire des genres." *Vingtième Siècle. Revue d'histoire*. vol. 75, no. 3 (2002).

Cabanes, Robert. "Avant-propos." *Cahiers Pratiques sociales et travail en milieu urbain*. no. 14 (1991).

Catusse, Myriam & Frédéric Vairel. "'Ni tout à fait le même, ni tout à fait un autre'. Métamorphose et continuité du régime marocain." *Maghreb-Maghrek*. no. 175 (2003).

Cherqaoui, Walid. "Être militante marxiste-léniniste au Maroc dans les années 1970." Centre arabe de recherches et d'études de Paris. 12/10/2023. at: https://acr.ps/1L9BPa7

Corcuff, Philippe. "Quand le terrain prend la parole... Eléments de sociologie réflexive." *L'Homme et la société*. no. 115 (1995).

Corradin, Irène & Jacqueline Martin (eds.). *Les femmes sujets d'histoire*. Toulouse: Presses Universitaires du Mirail, 1999.

Coulmont, Baptiste. *Sociologie des prénoms*. Paris: La Découverte, 2011.

Daho, Grégory, Emmanuel-Pierre Guittet & Julien Pomarède. "Les territoires du secret: Confidentialité et enquête dans les mondes pluriels de la sécurité." *Cultures & Conflits*. no. 118 (2020).

de Lambertie, Isabelle & Henri-Jacques Lucas (eds.). *Informatique, liberté et recherche médicale*. Paris: CNRS Editions, 2001.

Delacroix, Christian et al. (dir.). *Historiographies. Concepts et débats*. Paris: Gallimard, 2010.

Descamps, Florence. *Archiver la mémoire. De l'histoire orale au patrimoine immatériel*. Paris: Éditions EHESS, 2019.

El Guabli, Brahim. "Gender-unaware history: Ordinary Women as the Forgottens of Moroccan Historiography of the Present." *Journal of Applied Language and Culture Studies*. no. 2 (2019).

Fassin, Didier & Alban Bensa (eds.). *Les Politiques de l'enquête*. Paris: La Découverte, 2008.

Ferro, Marc. *L'Histoire sous surveillance*. Paris: Calmann-Lévy, 1985.

Frank, Robert. "La mémoire et l'histoire." *Bulletins de l'Institut d'Histoire du Temps Présent*. vol. 21, no. 1 (1992).

Gojard, Séverine (ed.). *Charges de famille. Dépendance et parenté dans la France contemporaine*. Paris: La Découverte, 2003.

Hivert, Joseph. "'Un bonheur paradoxal'. Les femmes de prisonniers politiques face à la violence au Maroc (1970-1990)." *20 & 21. Revue d'histoire*. vol. 151, no. 3 (2021).

Kenbib, Mohamed (ed.). *Du protectorat à l'indépendance: Problématique du temps présent*. Rabat: Publications de la Faculté des Lettres et des Sciences Humaines, 2006.

_____. *Temps présent et fonctions de l'historien*. Rabat: Publications de la Faculté des Lettres et des Sciences Humaines, 2009.

Kably, Mohamed (ed.). *Histoire du Maroc: Réactualisation et synthèse*. Rabat: Éditions L'Institut Royal pour la Recherche sur l'Histoire du Maroc, 2011.

Laborie, Pierre. "L'historien sous haute surveillance." *Esprit*. no. 198 (1994).

Laurens, Sylvain & Frédéric Neyrat (eds.). *Enquêter de quel droit? Menaces sur l'enquête en sciences sociales*. Paris: Éditions du Croquant, 2010.

"Le petit peuple des sociologues. Anonymes et pseudonymes dans la sociologie française." *Genèses*. vol. 107, no. 2 (2017).

Leroy, Sarah. "'Les prénoms ont été changés'. Pseudonymisation médiatique et production de sens des prénoms." *Cahiers de sociolinguistique*. vol. 11, no. 1 (2006).

Mohsen-Finan, Khadija. "Mémoire et réconciliation au Maroc." *Politique étrangère*. vol. 72, no. 2 (2007).

Mohsen-Finan, Khadija & Pierre Vermerren. *Dissidents du Maghreb: Depuis les indépendances*. Paris: Belin, 2018.

Pagnamenta, Veronica & Ariane Racine. "Graffer la ville, ou l'itinéraire filmé d'une 'simple manie'." *ethnographiques. org*. no. 5 (Avril 2004).

Paugam, Serge. *La pratique de la sociologie*. Paris: Presses Universitaires de France, 2008.

Perrot, Michelle. *Les femmes ou Les silences de l'histoire*. Paris: Flammarion, 1998.

Ricœur, Paul. *Temps et récit*. Paris: Le Seuil, 1983.

_____. *La mémoire, l'histoire, l'oubli*. Paris: Le Seuil, 2000.

Rivet, Daniel. *Histoire du Maroc*. Paris: Fayard, 2012.

Scott, Joan. *Gender and the Politics of History*. New York: Columbia University Press, 1988.

Slyomovics, Susan. "Témoignages, écrits et silences: l'Instance Équité et Réconciliation (IER) marocaine et la réparation." *L'Année du Maghreb*. no. 4 (2008).

Stora, Benjamin. "Maroc, le traitement des histoires proches." *Esprit*. no. 266-267 (Août-Septembre 2000).

Vairel, Frédéric. *Politique et mouvements sociaux au Maroc. La révolution désamorcée?* Paris: Presses de Sciences Po, 2014.

Vairel, Frédéric & Lamia Zaki. "Politisation sous contrainte et politisation de la contrainte: Outsiders politiques et outsiders de la ville au Maroc." *Critique international*. vol. 50, no. 1 (2011).

Vassy, Carine & Richard Keller. "Faut-il contrôler les aspects éthiques de la recherche en sciences sociales, et comment?" *Mouvements*. no. 55-56 (2008).

Vermeren, Pierre. *Le Maroc en transition*. Paris: La Découverte, 2004.

_____. *Histoire du Maroc depuis l'indépendance*. Paris: La Découverte, 2016.

Voldman, Danièle. "Avant-Propos." *Les Cahiers de l'Institut d'Histoire du Temps Présent*. no. 21 (1992).

_____. "Définitions et usages." *Les Cahiers de l'Institut d'Histoire du Temps Présent*. no. 21 (1992).

_____. "Le témoignage dans l'histoire française du temps présent." *Les Cahiers de l'Institut d'Histoire du Temps Présent*. vol. 75, no. 1 (2000).

Weber, Florence. "Publier des cas ethnographiques: Analyse sociologique, réputation et image de soi des enquêtés." *Genèses*. vol. 70, no. 1 (2008).

Wieviorka, Annette. *L'ère du témoin*. Paris: Plon, 1998.

Zolesio, Emmanuelle. "Anonymiser les enquêtés." *Interrogations? Revue pluridisciplinaire de sciences humaines et sociales*. no. 12 (2011).